

دور النبي محمد صلى الله عليه وسلم في تحضر العرب

The role of the Prophet Muhammad, peace be upon him, in the civilization of the Arabs

Saniha¹

Abstract

In establishing a peaceful society, the social values of Islamic Social Culture (ISC) plays a pivotal role. To save a society from losing peace and getting disturbed, we need to promote mutual tolerance. In this context, Islamic teachings are crystal clear. Each individual of a society because of being human deserves the right to benefit from all general facilities. To promote tolerance and to gain peace, Islam does not apply the condition of being a Muslim on its subjects. Rather allowing all to follow their respective religions, Islam asks the Muslims not to do any sort of disfavor to the non-Muslim. Islam encourages Muslims to have friendly and brotherly relations with others.

Keywords: encourage, establishing, values, pivotal

للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم- الفضل الأعظم في الارتقاء - حضارياً - بمستوى العرب، بعد عصور الظلام في أوربا، وعهود الجهل في الجزيرة العربية، وفي هذه المقالة نحاول أن نثبت هذه الحقيقة، ليس فقط من أفواه العلماء المسلمين، بل من أفواه المفكرين والباحثين من غير المسلمين. النبي محمد صلى الله عليه وسلم يصنع من قبائل العرب أمة: تقول إيقلين كوبلد: "كان العرب قبل محمد -صلى الله عليه وسلم- أمة لا شأن لها، ولا أهمية لقبائلها، ولا لجماعتها، فلما جاء محمد -صلى الله عليه وسلم- بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً، لقد استطاع النبي -صلى الله عليه وسلم- القيام بالمعجزات والعجائب، لَمَّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوحدانية الإلهية، لقد وُقِّق إلى خلق العرب خلقاً جديداً، ونقلهم من الظلمات إلى النور"[1].

University of Okara¹

فلقد كانت الحياة العربية قبل الإسلام تقوم أساساً على نمطية خاصة؛ فالقبيلة هي التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي يضم حياة الفرد في القبيلة، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماءً قبلياً، وليس هناك أية رابطة عملية توحد القبائل وتجمعها، بل على النقيض؛ كانت القبائل متناحرة متحاربة، وإذا ما قامت أحلاف قبلية، فلمُنصرة قبيلة على أخرى، وبالتحديد كانت القبيلة العربية تصنع وحدة سياسية مستقلة. ومن هنا كان الانقلاب الذي أحدثه الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- عميقاً في حياة الجزيرة العربية؛ إذ استطاع بسياسته الكفاحية التي تُملئها روح الإسلام أن يحول هذه الوحدات القبلية المستقلة ويرتقي بها لتظهر في إطار الأمة الإسلامية [2]. إن "الأمة الإسلامية" - القائمة على الإيمان - التي أسسها النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت ولا زالت أقوى رباطاً، وأوثق عرى من فكرة القبلية التي سادت في القرون الغابرة. ويؤكد ذلك المفكر الألماني رودري بارث [3] بقوله: "كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي ووحدات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فساداً، حتى أتى محمد -صلى الله عليه وسلم- ودعاهم إلى الإيمان بالله واحد، خالق باري، وجمعهم في كيان واحد متجانس" [4]. ويقول رودري بارث، في موضع آخر: "جاء محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو إلى القول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة [في دعوته] لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، لا تضبط الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية؛ فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين، ونشر الدين الحنيف، وعندما قبض النبي العربي -صلى الله عليه وسلم- عام 632م، كان قد انتهى من دعوته، وانتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وتمت للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل.. [5]. فضل النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- على العرب لا حد له: هذا، ولقد أثار موضوع فضل الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- على العرب، اهتمام المنصفين؛ فهو الذي وحد الجزيرة العربية أول مرة في التاريخ في ظل حكم إسلامي، متنور نقل العرب من الجاهلية إلى الحضارة والمدنية، يقول الباحث الروسي آرلونوف في مجلة الثقافة الروسية، في مقالة: "النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-"

وسلم-. "في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين ظهرت ديانة، أساسها الاعتراف بوحدانية الله، وهذه الديانة تعرف بالمحمدية، أو كما يسميها أتباعها الإسلام، وقد انتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً، ومؤسس هذه الديانة هو العربي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وقد قضى على عادات قومه الوثنية، ووجد قبائل العرب، وأثار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد، وهذب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم وجعلها مستعدة، للراقي والتقدم، ومنعهم سفك الدماء وواد البنات، وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد-صلى الله عليه وسلم- تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن في نفسه قوة فوق قوة البشر، فكان ذا فكر نير، وبصيرة وقيادة، واشتهر بدمائة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن المعاملة مع الناس، قضى محمد -صلى الله عليه وسلم- أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حباً جماً، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة"[6]. إن فضل الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- على العرب لا حد له؛ إذ أخرجهم من الجاهلية إلى نور الإسلام؛ يقول المستشرق الأيرلندي المستر هربرت وايل في كتابه: "المعلم الكبير". "بعد ستمائة سنة من ظهور المسيح ظهر محمد -صلى الله عليه وسلم- فأزال كل الأوهام، وحرّم عبادة الأصنام، وكان يلقيه الناس بالأمين، لما كان عليه من الصدق والأمانة، وهو الذي أرشد أهل الضلال إلى الصراط المستقيم"[7]. ويضيف هنري سيروي أن "محمدأ -صلى الله عليه وسلم- لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب"[8]. ويتحدث الباحث الأمريكي جورج دي تولدز (1815-1897)، عن فضل الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- على العرب حين نقلهم من الهمجية إلى المدنية، وعن دور الرسالة في تبديل أخلاق عرب الجاهلية، حين عمر ضياء الحق والإيمان قلوبهم، فيقول: "إن من الظلم الفادح أن نغمض الجفن عن حق محمد -صلى الله عليه وسلم- والعرب على ما علمناهم من التوحش قبل بعثته، ثم كيف تبدلت الحالة بعد إعلان نبوته، وما أورته الديانة الإسلامية من النور في قلوب الملايين من الذين اعتنقوها بكل شوق وإعجاب من الفضائل؛ لذا فإن الشك في بعثة محمد-صلى الله عليه وسلم- إنما هو شك في القدرة الإلهية التي تشمل الكائنات

جمعاء" [9]. من أعظم الآثام أن نتنكر لدور النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-: يؤكد ذلك م. ج. دُرّاني [10] بقوله: ".. وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة الله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقتربون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة، وقانون واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة التي لم تتجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهدية تتجب ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد" [11]. وتقول الشاعرة الإنكليزية اللايدي إيفلين كوبرلد في كتابها: "الأخلاق": "لعمري لقد استطاع محمد-صلى الله عليه وسلم- القيام بالمعجزات والعجائب، لما تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوجدانية الإلهية، ولقد كان محمد-صلى الله عليه وسلم- شاكراً حامداً إذ وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً، ونقلهم من الظلمات إلى النور، ومع ذلك كان محمد -صلى الله عليه وسلم- سيد جزيرة العرب، وزعيم قبائلهم، فإنه لم يفكر في هذه، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله، مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريماً باراً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بئس إلا تفضل عليه بما لديه، وكان يعمل في سبيل الله والإنسانية" [12]. كان فضل النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- على العرب من العمق وبُعد الأثر لا يحصره زمان أو يحده مكان، عاشته أمة الإسلام، وما زال وسيظل باقياً خالداً، يقول الباحث قسطاكي حمصي (1858-1941): "إذا كان سيد قريش نبي المسلمين ومؤسس دينهم، فهو أيضاً نبي العرب، ومؤسس جامعتهم القومية، وإنه من الحمق والمكابرة أن ننكر ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبية الفرعية في نفوس القبائل، بعد أن أنهكها القتال في قتال الصحراء، وتناحر ملوكها في الشام والعراق تناحراً أطال أمد الحماية الرومانية والفارسية في البلدين الشقيقتين حتى الفتح الإسلامي، فمن الخطأ أن ننكر ما للرسول العربي الكريم، وخلفائه من يد على أن الشرق، في إثارة

تلك الحماسة والبطولة النادرة المتدفقة في صدور أولئك الصحب الميامين، الذين كانوا قابعين في حزون الجزيرة وبطاحها، في سبيل الفتح، والمنافحة لتحرير الشرق من رق الرومان وأسر الفرس، إن سيد قريش هو المنقذ الأكبر للعرب من فوضى الجاهلية، وواضع حجر الزاوية، في صرح نهضتهم الجبارة المتأصلة في تربة الخلود"[13]. ويبين أرنولد توينبي[14] أن النبي محمداً قد وقف حياته لتحقيق رسالته في كفالة مظهرين أساسيين في البيئة الاجتماعية العربية؛ هما الوجدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم. "وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوجدانية والسلطة التنفيذية معاً؛ فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب، ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي"[15]. وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِِي؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ»[16]. كيف حول النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- العرب من قبائل متناحرة إلى أمة محترمة؟ بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة. عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكاداس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها، ولا يعرف محلها وقد أضعفتها الجاهلية والكفر والإخلاق إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكانما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً؛ فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك؛ فعاد حياً يملئ على العالم إرادته وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم. عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب، وبنهره وكان من أوساط قريش

جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً - إذا به يفاجئ العالم بعبقريته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويؤسس دولة إسلامية، تجمع بين ممتلكاتهما، وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام، فضلاً عن الورع والتقوى والعدل، الذي لا يزال فيه المثل السائر [17]. للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- الفضل الأكبر في رقي العالم كله: ويبين المستر سنكس أن لمحمد -صلى الله عليه وسلم- الفضل الأكبر ليس فقط في رقي العرب بل في رقي العالم كله حتى اليوم، فيقول سنكس: "ظهر محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة... إلى أن قال: "إن الفكرة الدينية الإسلامية، أحدثت رقياً كبيراً جداً في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان، ولقد توصل محمد - بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق - إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة" [18]. وهكذا، ارتقى العرب - وغير العرب - ارتقاءً حضارياً ضخماً من عصور الجاهلية والظلام إلى عصور التحضر، بفضل دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

[1] إيقطين كوبلد: البحث عن الله، ص51، 66، 67.

[2] انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستثنائية المنصفة، ص 68 وما بعدها.

[3] مفكر وباحث ألماني، عكف على الدراسات الشرقية والعربية في جامعة هايدلبرج، ووقف حياته لدراسة الإسلام، وصنف عدداً كبيراً من الكتب والأبحاث، منها ترجمته للقرآن الكريم، التي أصدرها في عامي 1964 و1965، وله كتاب عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

- [4] رودى بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص 20.
- [5] رودى بارت: تاريخ الحضارات العام، 3 / 112.
- [6] آرلونوف: النبي محمد، مجلة الثقافة الروسية، ج 7، عدد 9.
- [7] هربرت وايل: المعلم الأكبر، ص 17.
- [8] هنري سيروي: فلسفة الفكر الإسلامي، ص 8.
- [9] جورج دي تولدز: الحياة، ص 6.
- [10] سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانياً في فترة مبكرة من حياته، تحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى رداً من حياته في كنيسة إنكلترا؛ حيث عمل قسيساً منذ عام 1939 وحتى عام 1963، ثم عاد إلى دين الإسلام.
- [11] رجال ونساء أسلموا، 4 / 28 - 29.
- [12] ايفلين كوبرلد: الأخلاق ص 66.
- [13] مجلة الفتح القاهرية، عام 1930م.
- [14] المؤرخ البريطاني، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام 1921 وانتهى منه عام 1961، وهو يتكون من اثني عشر جزءاً عرض فيها توينبي رؤيته الحضارية للتاريخ.
- [15] سومر فيل و آرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ 10 / 381.
- [16] صحيح البخاري، ج 13 / ص 224.
- [17] انظر: أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 155 وما بعدها.

[18] آن بيزينت: حياة وتعاليم محمد، ص5